الأخوة

عناصر الموضوع

مفهوم الأخوة	١٣٨
الأخوة في الاستعمال القرآني	١٣٩
الألفاظ ذات الصلة	١٤٠
أنواع الأخوة في القرآن	١٤٢
أحكام وعلاقات مرتبة على الأخوة	١٥٣
العلاقات الاجتماعية بين الإخوة	١٦٢
فوائد من قصص الإخوة في القرآن	١٦٤

Made searchable using ScribeTools.com

مفهوم الأخوة

أولًا: المعنى اللغوي:

الأخ: أصله أخو بالتحريك؛ لأنه جمع على آخاء مثل آباء، والذاهب منه واو؛ لأنك تقول في التثنية أخوان... وقد يتسع فيه فيراد به الاثنان؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء:١١].

وهذا كقولك: إنا فعلنا، ونحن فعلنا، وأنتما اثنان، وأكثر ما يستعمل الإخوان في الأصدقاء، والإخوة في الولادة(١).

والأخ-في الحقيقة- هو: كل من جمعك وإياه صلب أو بطن، ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في الصنعة أو في معاملة أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات، والأخت كالأخ، وقيل: الإخوة جمع الأخ من النسب، والإخوان جمع أخ من الصداقة(٢).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

تقدم معنا أن الأخ هو كل من جمعك وإياه صلب أو بطن ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في الصنعة أو في معاملة أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات والأخت كالأخ.

والذي يهمنا هو تعريف الأخوة بمعناه العام وهي أخوة النسب، وفي القرآن الكريم بمعنى خاص وهي الأخوة الإسلامية.

فالأخوة عمومًا دون تخصيص:

هي: مشاركة شخص لآخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع، ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صنعة أو في معاملة أو في مودة أو في غير ذلك من المناسبات(٣).

والأخوة هي الميثاق الذي يربط بين الأفراد، وهذا معنى عام فهي ربط بين الأقرباء وغيرهم بأي نوع من أنواع الصلة بينهم.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٨/ ١٤١.
(٢) الكليات، الكفوي ص ٦٣.
(٣) نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٢/ ٩٢.

الأخوة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أخو) في القرآن (٩٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٦٠	﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف:٧٧]
المثنى	٢	﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ [النساء:٢٣]
الجمع	٣٤	﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات:١٠]

وجاءت الأخوة في القرآن على ستة أوجه[٢]:

أحدها: الأخ من الأب والأم أو من أحدهما: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ [النساء:١١]. يعني: الأخ من النسب.

الثاني: أخوة القبيلة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [الأعراف:٦٥]. يعني: منهم.

الثالث: الأخوة في الدين: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات:١٠]. يعني: في الدين.

الرابع: الأخوة في المودة والمحبة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾ [الحجر:٤٧].

يعني: جمعتهم المودة والمحبة.

الخامس: الصاحب: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ [ص:٢٣]. يعني: صاحبي.

السادس: الشبه: ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ [الأعراف:٣٨]. يعني: شبهها.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص ١٤٣٣.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٨٤، ٨٥.

Made searchable using ScribeTools.com

الألفاظ ذات الصلة

١ الخلة:

الخلة لغة:

(الخليل) الصديق والجمع (أخلاءٌ)[١].

وهي أخص من الأخوة[٢].

الخلة اصطلاحًا:

أخوة خاصة لأخ معين من بين سائر الإخوان لشدة الموافقة بينه وبين أخيه. وهي أعلا مراتب المحبة[٣].

الصلة بين الأخوة والخلة:

الخلة مرتبة فوق مرتبة الأخوة وغيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥].

والخليل: المخال، وهو الذي يخالك، أي: يوافقك في خلالك، أو يسايرك في طريقك، أو يسد خللك كما تسد خلله، أو يداخلك خلال منازلك وحجبك[٤].

فلشدة قرابته من أخيه والتصاقه به وموافقته ومسايرته ومداخلته؛ صار خليلًا له.

فأما كون الخلة فوق الأخوة فمعناه أن لفظ الخلة: عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة، وتعرفه من قوله صلى الله عليه وسلم: «لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ولكن أخوة الإسلام... الحديث»[٥]؛ إذ الخليل هو الذي يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهرًا وباطنًا[٦].

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد بن علي المقري ١/ ٩٦.

(٢) فتح الباري، العسقلاني ١٠/ ١٥٤.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٣٢.

(٤) الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٠١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم ٤٦٦، ١/ ١٦٢.

(٦) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ص ٦٥١.

٢ الصداقة:

الصداقة لغة:

الصداقة: صدق الاعتقاد في المودة، وذلك مختص بالإنسان، وقوله: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء:١٠١]، إشارة إلى قوله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف:٦٧][١].

الصداقة اصطلاحًا:

قوة المودة مأخوذة من الشيء الصدق وهو الصلب القوي، وقال أبو علي رحمه الله: الصداقة اتفاق القلوب على المودة، ولهذا لا يقال: إن الله صديق المؤمن كما يقال إنه حبيبه وخليله[٢].

الصلة بين الأخوة والصداقة:

قال ابن عباس: الصديق أوكد من القرابة[٣].

ورفع الشارع الحرج في الأكل من بيت الصديق؛ لأنه أرضى بالتبسط وأسر به من كثير من ذوي القرابة[٤].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني١/ ٤٨٠.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ١/ ١٢١.
(٣) روائع البيان، الصابوني٢/ ٢١٧.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ٥٥٧.

Made searchable using ScribeTools.com

أنواع الأخوة في القرآن

أولًا: الأخوة في العقيدة:

الأخوة في العقيدة هي أعظم الأخوات كما مر معنا، ويمكن أن نجعلها في قسمين رئيسين:

١. الأخوة بين أهل العقيدة الإسلامية الصحيحة.

والعقيدة التي نريدها: الإيمان الجازم بالله تعالى، وبما يجب له من التوحيد، والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبما يتفرع عن هذه الأصول ويلحق بها مما هو من أصول الدين.

وقد أطلق كثير من السلف على العقيدة الصحيحة اسم «السنة»، وذلك لتمييزها عن عقائد ومقولات الفرق الضالة؛ لأن العقيدة الصحيحة وهي عقيدة أهل السنة والجماعة مستمدة من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، التي هي مبينة للقرآن(١).

وقد وردت في ذلك آيات تحمل في مضمونها الأمر المباشر أو الحث أو مدح هذه الأخوة.

بيان حقيقة الأخوة: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

ومن أفضل ما قال المفسرون: وهذه الصورة النظيفة الرضية الواعية، وهي تبرز أهم ملامح التابعين، كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان.

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار- ولم يكونوا قد جاءوا بعد عند نزول الآية في المدينة، إنما كانوا قد جاءوا في علم الله وفي الحقيقة القائمة في هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان- سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة، لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان، مع الشعور برأفة الله ورحمته، ودعائه بهذه الرحمة، وتلك الرأفة، وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود، تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها، في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف، وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب وتتفرد وحدها

(١) تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين ص١٠.

في القلوب، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة، كما يذكر أخاه الحي، أو أشد، في إعزاز وكرامة وحب، ويحسب السلف حساب الخلف، ويمضي الخلف على آثار السلف، صفًا واحدًا وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان، تحت راية الله تغذ السير صعدًا إلى الأفق الكريم، متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم.

إنها صورة باهرة، تمثل حقيقة قائمة كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم، صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها... صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة في طريقها إلى الله، بريئة الصدور من الغل، طاهرة القلوب من الحقد(١).

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضًا.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: ﴿سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] دليل على المشاركة في الإيمان، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين؛ لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضًا، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضرًا وغائبًا، حيًا وميتًا، ودلت الآية الكريمة على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده(٢).

إنها أخوة الإيمان، الأخوة التي ليس لها

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٧ وهذا النقل، وإن طال، مهم في هذا الباب لحسن صياغته وجمعه وحلاوة تعبيره.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٠٤.

Made searchable using ScribeTools.com

نظير، وما لنا عنها ولا بها بديل.

كلهم يترحمون على السلف من المؤمنين الذين سبقوهم، ويسلكون طريق الشفقة على جميع المسلمين، ويستغفرون لهم، ويستجيرون من الله أن يجعل لأحد من المسلمين في قلوبهم غلًا، أي: حقدًا، ومن لا شفقة له على جميع المسلمين فليس له نصيب من الدين[(١)].

فهي عامة في جميع التابعين والآتين بعدهم- المهاجرين والأنصار- إلى يوم الدين[(٢)].

وهي أخوة تتوارثها الأجيال من السلف للخلف، بل تدوم إخوتهم إلى مماتهم حتى يجمعهم الله عليها مرة أخرى في دار كرامته أبد الآبدين.

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر:٤٧] وهذا من أعظم كمال اللذات حيث يكون الإنسان خالدًا مخلدًا، وحيث يكون هو وإخوانه ورفقاؤه في ذلك النعيم ليس بين اثنين منهم شحناء، ولا عداوة، ولا حقد، ولا حسد، ولا مخاصمة، وكل هذا من كمال النعيم[(٣)].

لمن تبذل الأخوة؟ الأصل أنها تبذل لكل من قام بالعقيدة الصحيحة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠] أي: الجميع إخوة في الدين[(٤)]، أو تاب مما كان عليه من اعتقاد باطل وعاد للإسلام الحق، كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة:١١].

يقول: إن تركوا اللات والعزى، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:١١]. قال ابن زيد: افترضت الصلاة والزكاة جميعًا لم يفرق بينهما وقرأ: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١١].

وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: رحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه[(٥)].

وهذا بيان أن يقوموا بكل ما أمر الإسلام به، دون تهاون في حق الله الذي أمرنا به.

فإن تابوا: مما هم عليه من الكفر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين أي: فهم إخوانكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، فعاملوهم معاملة الإخوان، وفيه من استمالتهم واستجلاب قلوبهم ما لا مزيد عليه[(٦)].

ويفهم من مفهوم الآية: أنهم إن لم يقيموا الصلاة لم يكونوا من إخوان المؤمنين،

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٥٦٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٢.
(٣) العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٢٦٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٥٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٢٨.
(٦) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٣٧٠.

ومن انتفت عنهم أخوة المؤمنين فهم من الكافرين؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠][1].

ويدل على أن من أظهر لنا الإيمان وأقام الصلاة وآتى الزكاة فعلينا موالاته في الدين على ظاهر أمره مع وجود أن يكون اعتقاده في المغيب خلافه[2].

٢. أخوة المنافقين وأهل العقائد الفاسدة.

والأصل فيهم أنهم قد اجتالتهم الشياطين، ولعبت بهم يمنة ويسرة هم ومن كان على شاكلتهم، أو تعاون معهم في غيهم.

وأن فريق الكافرين يزيدهم الشيطان غيًا إلى غيهم إذا ركبوا معصية من معاصي الله، ولا يحجزهم تقوى الله، ولا خوف المعاد إليه عن التمادي فيها والزيادة منها، فهم أبدًا في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيدهم أبدًا، لا يقصر الإنسي عن شيء من ركوب الفواحش، ولا الشيطان من مدهم منه[3].

وقد جاءت الآيات التي تحدثت عن أخوتهم السيئة؛ للتحذير منها والتنفير عنها.

ذكر أخوتهم على سبيل الذم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران:١٥٦].

وظاهر من مناسبة هذه الآيات في سياق المعركة، أن هذه كانت أقوال المنافقين الذين رجعوا قبل المعركة، والمشركين من أهل المدينة الذين لم يدخلوا في الإسلام ولكن ما تزال بين المسلمين وبينهم علاقات وقرابات[4].

فينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب، لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٥٦].

أي: سافروا للتجارة ونحوها ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ أي: كانوا في الغزو ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا﴾ أي: في البلد ﴿مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ أي: ما ماتوا في السفر، وما قتلوا في الغزو[5].

فهم بكفرهم هذا ليسوا بإخوان، ومع

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٤٤٧.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٢٧٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٥٧.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٩.

Made searchable using ScribeTools.com

ذلك فأخوتكم فيما بينكم ليست على طريقتهم.

فلا تكونوا كالمنافقين الذي ينهون إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله والضرب في الأرض في طاعة الله وطاعة رسوله، ويقولون إذا ماتوا أو قتلوا: لو أطاعونا ما ماتوا وما قتلوا[1].

فأخوة المؤمنين واضحة المعالم، وأخوة غيرهم سراب بقيعة لا حقيقة له.

بيان زيف أخوتهم، وأنه اجتماع وقت للإضرار بالمؤمنين:

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر:١١].

يعني بني النضير، وأخوتهم معهم أخوة دين واعتقاد، أو أخوة صداقة وموالاة؛ لأنهم كانوا معهم سرًا على المؤمنين[2].

ولما فرغ سبحانه من ذكر الطبقات الثلاث من المؤمنين، ذكر ما جرى بين المنافقين واليهود من المقاولة لتعجيب المؤمنين من حالهم، فقال: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [الحشر:١١] والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لكل من يصلح له، والذين نافقوا هم: عبد الله بن أبي وأصحابه، وجملة: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [الحشر:١١].

مستأنفة لبيان المتعجب منه، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، أو للدلالة على الاستمرار، وجعلهم إخوانًا لهم لكون الكفر قد جمعهم، وإن اختلف نوع كفرهم فهم إخوان في الكفر[3].

فقولهم هذا: لإخوانهم الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر، ولأنهم كانوا يوالونهم ويواخونهم، وكانوا معهم على المؤمنين في السر[4].

فأثبت الله أن لهم أخوة؛ لكنها ليست على مرضات الله وليست كما وجه إليها رسوله صلى الله عليه وسلم؛ بل هي مغايرة لذلك تمامًا.

فهذه الأخوة قامت على الكفر بالله، ومعصية رسوله صلى الله عليه وسلم، والإضرار بعباد الله المؤمنين، فلسيت بأخوة على الحقيقة بل لها اشتراك لفظي كما يقال، ولقد ذكرت بصورتها البشعة؛ ليجتنبها عباد الله المؤمنين في أخوتهم، فأخوتهم قائم على أمر الله ورسوله.

ثانيًا: الأخوة في النسب:

أصل الأخوة النسب كما سبق، وأخوة

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٩٠.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٨٢.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٧١.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٨٢.

النسب إما لأشقاء أو غير أشقاء، ومن الآيات التي وردت في ذلك:

ذكر العلاقة بين الإخوة في النسب عمومًا:

قال تعالى-حاكيًا عن أهوال يوم القيامة-: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ [عبس:٣٤].

وبدأ بالأخ، ثم بالأبوين؛ لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين؛ لأنهم أقرب وأحب[1].

فالأخ ليس أحب إلى أخيه من والديه؛ إنما الاعتماد عليه في المهمات أكثر منهما.

قال قتادة: الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب من هول ذلك اليوم[2].

وهذا الترتيب في الأهل يتناسب مع سياق الآيات، ففي سورة عبس المشهد هو مشهد الفرار يخلو المرء بنفسه ويفر المرء أولًا من الأبعد إلى الأقرب إلى قلبه، يفر أولًا من أخيه ثم من أمه وأبيه ثم من صاحبته وبنيه الذين هم أقرب الناس إلى قلبه، أما في سورة المعارج فالمقام مقام عذاب وليس فرار؛ فيرى المرء مشهد عذاب فوق ما تصوره ولا يقبل المساومة فيبدأ يفدي نفسه بالأقرب إلى قلبه ثم الأبعد؛ لذا بدأ ببنيه أعز ما عنده ثم صاحبته وأخيه ثم فصيلته ثم من في الأرض جميعًا[3].

فهم إخوة أشقاء، أو إخوة لأب، أو إخوة لأم؛ فيجتمعون في إخوة النسب.

حكم يعم الإخوة جميعًا وهو بيان للمحرمات عليهم من النساء:

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء:٢٣].

عن ابن عباس قال: يحرم من النسب سبع ومن الصهر سبع، ثم قرأ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء:٢٣] فهذه النسب[4].

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء كما هو نص الآية الكريمة[5].

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ١٨٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٩٩٣.
(٣) لمسات بيانية، السامرائي ١/ ٦٩٢.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٣/ ٩١١.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٦.

Made searchable using ScribeTools.com

فكل هؤلاء اللواتي سماهن الله تعالى وبين تحريمهن في هذه الآية، محرمات، غير جائز نكاحهن لمن حرم الله ذلك عليه من الرجال، بإجماع جميع الأمة[1].

فتحرم الأخوات، وبنات الأخ وبنات الأخت أبدًا.

بل يحرم الجمع بين أختين، وحكمته دفع الغيرة عمن يريد الشرع بقاء تمام المودة بينهما، وقد علم أن المراد الجمع بينهما فيما فيه غيرة، وكذلك في التسري[2].

تجريم الضرر بالأخ من النسب أو غيره:

فحرم الله القتل بين المؤمنين وشنعه بقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

وكان قصة ذلك قتل أحد ابني آدم لأخيه، وتحيره في مواراته ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة:٣١].

يقول تعالى مبينًا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور، وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله، بغيًا عليه وحسدًا له، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين... وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن[3].

فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه، وليجيش خاطر القتل في نفسه! فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة في هذا المجال... مجال العبادة والتقرب[4].

والأصل أنه لا يجوز الإتيان بشيء يضر بحقوق الأخ القريب أو البعيد.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند[5].

ثالثًا: الأخوة من الرضاعة:

كما أن الأخوة من النسب، فهي كذلك من الرضاع ولها الحكم ذاته، والذي ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم

---

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ٦٦٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٣٠١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٥٧٩.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٣٥٠.
(٥) الحيوان، الجاحظ ٣/ ٤٩٦.

﴿مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء:٢٣].

فقوله: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ وهي الأخت لأب وأم، التي أرضعتها أمك بلبان أبيك؛ سواء أرضعتها معك أو ولدت قبلك أو بعدك، والأخت من الأب دون الأم، التي أرضعتها زوجة أبيك، والأخت من الأم دون الأب، التي أرضعتها أمك بلبان رجل آخر... وهما محرمتان بالقرآن، ولم يذكر من المحرم بالرضاعة في القرآن سواهما، والأم أصل والأخت فرع؛ فنبه بذلك على جميع الأصول والفروع[(١)].

والأبناء ثلاثة: ابن نسب، وابن رضاع، وابن تبن.

فأما ابن النسب فمعلوم، ومعلوم حكمه.

وأما ابن الرضاع فيجري مجرى الابن في جملة من الأحكام معظمها التحريم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»، و ابن التبني كان في صدر الإسلام ثم نسخ[(٢)].

فنص في هذه الآية على حرمة الأمهات والأخوات من جهة الرضاعة إلا أن الحرمة غير مقصورة عليهن؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) وإنما عرفنا أن الأمر كذلك بدلالة هذه الآيات، وذلك لأنه تعالى لما سمى المرضعة أمًا والمرضعة أختًا؛ فقد نبه بذلك على أنه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب، وذلك لأنه تعالى حرم بسبب النسب سبعًا:

- اثنتان منها هما المتسبتان بطريق الولادة وهما الأمهات والبنات.
- خمس منها بطريق الأخوة وهو الأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت.

ثم إنه تعالى لما شرع بعد ذلك في أحوال الرضاع ذكر من هذين القسمين صورة واحدةً تنبيهًا بها على الباقي، فذكر من قسم قرابة الولادة الأمهات ومن قسم قرابة الأخوة الأخوات، ونبه بذكر هذين المثالين من هذين القسمين على أن الحال في باب الرضاع كالحال في النسب، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أكد هذا البيان بصريح قوله: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[(٣)] فصار صريح الحديث مطابقًا لمفهوم الآية وهذا بيان لطيف[(٤)].

ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء:٢٣].

فكل أقارب الأم المرضع أقارب

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٧٤.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٨٧.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، رقم ٢٦٤٥، ٢/ ٧٩٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٢٥.

Made searchable using ScribeTools.com

للرضيع، فالمرضعة تصبح أمًا للرضيع، وبنتها أخته، وزوجها أبوه، وأولادها إخوته[(١)].

قلت: وكذلك ما تفرع عنهن أو تفرع عنه، فانظر لجلال الله وجمال شريعته.

وأثبت تعالى الأخوة بين بنات المرضعة وبين المرضع والحرمة بينهما مطلقًا من غير فصل بين أخت وأخت، وكذا بنات بناتها وبنات أبنائها وإن سفلن؛ لأنهن بنات أخ المرضع وأخته من الرضاعة، وهن يحرمن من النسب كذا من الرضاعة، ولو أرضعت امرأة صغيرين من أولاد الأجانب صارا أخوين لكونهما من أولاد المرضعة فلا يجوز المناكحة بينهما إذا كان أحدهما أنثى، والأصل في ذلك أن كل اثنين اجتمعا على ثدي واحد صارا أخوين أو أختين أو أخًا وأختًا من الرضاعة[(٢)].

والمرضوع يصبح ولدًا لزوج المرضعة، فلو عنده أولاد من زوجة أخرى أصبح المرضوع أخًا لهم؛ فيجري بينهم ما للرضاع من أحكام.

والأصل في هذا ما ذكره ابن كثير بقوله: ذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم.

قال الترمذي[(٣)]: «باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين»: حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة، عن هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أم سلمة قالت: قال رسول صلى الله عليه وسلم: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل الفطام»، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم: أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئًا[(٤)].

وعددها: خمس رضعات عن أكثر أهل العلم، وفيه أقوال في كتب الفقه.

ورضاع الكبير: منسوخ عند فقهاء الأمصار[(٥)].

فتكون الأخوة من الرضاع: ما كانت في الحولين الأولى من الحياة، وبلغ عددها خمسًا فأكثر، ولا اعتبار برضاع الكبير؛ لأن الحكم فيه منسوخ.

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٤/ ٣١٢.
(٢) بدائع الصنائع، الكاساني ٤/ ٢.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان في الصغر، رقم ١١٥٢، ٣/ ٤٥٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦١.
(٥) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٦٧.

رابعًا: الأخوة في الأوطان والعشيرة:

جاء ذكر الأخوة في القرآن الكريم بمعنى أخوة الأوطان والديار، وهي من حقوق الجوار كذلك التي نبه عليها الإسلام، وجعلها حقًا من حقوق الأخوة.

فهم إخوة قوم أو عشيرة ديارهم واحدة ومساكنهم متقاربة، ومنه قول قريط[(١)]:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

ويمكن تقسيمها كالتالي:

١ . أخوة الأوطان:

وفي القرآن الكريم وردت بهذا المعنى آيات قليلة وإن كانت في حق الأنبياء.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الشعراء:١٦١].

وجعل لوط أخًا لقومه ولم يكن من نسبهم وإنما كان نزيلًا فيهم، إذ كان قوم لوط من أهل فلسطين من الكنعانيين، وكان لوط عبرانيًا وهو ابن أخي إبراهيم ولكنه لما استوطن بلادهم وعاش فيهم وحالفهم وظاهرهم جعل أخًا لهم[(٢)].

ولذا قال الله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾ [ق:١٢-١٣].

ومن ذلك ما ذكره الله عن هود عليه السلام: فقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف:٦٥].

أخاهم بمعنى: واحدًا منهم كما يقولون: (يا أخا العرب) وإنما أرسل منهم؛ لأنهم أفهم لقوله من قول غيره، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله، وأرغب في اقتفائه[(٣)].

وكذلك قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود:٥٠].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء:١٢٤].

أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا، قال ابن عباس: أي: ابن أبيهم، -وتقدم أنه ليس كذلك- وقيل: أخاهم في القبيلة، وقيل: أي: بشرًا من بني أبيهم آدم، وفي مصنف أبي داود أن أخاهم هودًا صاحبهم[(٤)].

وسماه أخًا تنبيهًا على إشفاقه عليهم شفقة الأخ على أخيه، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف:٧٣]. ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف:٦٥]. ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥][(٥)].

---

(١) العقد الفريد، ابن عبدربه ٣/ ١٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٧٨.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٨، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١١٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٦.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٦٨.

Made searchable using ScribeTools.com

فأخوة الأوطان تحمل الأخ على العيش مع إخوانه في ديارهم، وتقديم الخير لهم، ورفع الضر عنهم، والتعاون معهم، ودفع الصائل عنهم، فله ما لهم وعليه ما عليهم، وهذا ما نبه عليه الإسلام في اهتمامه الأعظم بحقوق الجار خاصة إن كانوا مسلمين أقرباء.

٢. أخوة العشيرة:

وأخوة العشيرة[١] هي أخوة نسب لكنها ليست الأخوة المعتادة، فتكون بين الأشقاء أو غير الأشقاء أو بين الرضعاء، أو أبناءهم مجتمعين في عشيرة واحدة.

والعشيرة تنقسم فيها فخوذ الناس على مراتب النسب، وتكون نسبتها لأب مشهور من نسل والد قديم أشهر منه، وتطلق على قوم تعاشروا في ظروف معينة وكانت بينهم أمور تجمعهم.

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذر عشيرته الأقربين، أي: الأدنين إليه[٢]، فلما دعاهم دعا عشيرته الذي ينتمي وإياهم إلى جد واحد، فخص الأقربين؛ لأن الاهتمام بشأنهم أولى، وهدايتهم إلى الحق أقوم[٣].

ويمكن الاعتماد في هذا الجزء على البيان المتقدم في أخوة النسب.

(١) العشيرة: الجماعة أو القبيلة.
وقيل: الأدنى إلى الرجل من أهله، وهم ولد أبيه وجده.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤٥٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٦٣.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٨.

أحكام وعلاقات مرتبة على الأخوة

أولًا: الميراث:

من أعظم ما جاء به الإسلام قضية الميراث، بل وصل من حب الأخوة المؤمنين في بداية الإسلام أن يرث الأخ في الله أخاه، خاصة الذين آخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، ثم نسخ ذلك.

ولا ميراث للإخوة والأخوات مطلقًا مع الابن أو ابن الابن أو الأب وفي ميراثهم مع الجد خلاف، ويورثون مع البنات إلا الإخوة لأم ويسقط الأخ لأب مع الأخ لأبوين[(١)].

وفي بيان ذلك يقول الله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء:١٢].

(١) انظر: الدراري المضيئة، الشوكاني ٢/ ٤٢٩.

يعني بقوله جل ثناؤه: «وله أخ أو أخت»، وللرجل الذي يورث كلالة أخ أو أخت، يعني: أخًا أو أختًا من أمه[(٢)].

وقوله تعالى: وله أخ أو أخت أي: من أم كما هو في قراءة بعض السلف، منهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكذا فسرها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فيما رواه قتادة عنه فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث[(٣)].

وميراث الأخوة له تفاصيل مرتبة عند الفقهاء وعلماء الفرائض.

فلم يجز أن يقطع على مراد الله تعالى إلا بالإجماع المتيقن الثابت إذا لم نجد نصًا مفسرًا؛ فوجب بهذا أن لا يرث الإخوة كيف كانوا، إلا حيث يعدم كل من ذكرنا، إلا أن يوجب ميراث بعضهم نص صحيح فيوقف عنده، وليس ذلك إلا في موضعين فقط: وهو الأخ الشقيق، أو للأب مع الابنة فصاعدًا، وأخت مثله معه فصاعدًا، ما لم يستوف البنات الثلثين، والموضع الثاني: الأخت كذلك مع البنت، أو البنات حيث لا عاصب للميت فقط وبالله تعالى التوفيق[(٤)].

وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم، وميراث الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب مذكور في قوله عز وجل:

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٦٢٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤١٧.
(٤) انظر: المحلى، ابن حزم ٨/ ٢٨٥.

Made searchable using ScribeTools.com

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء:١٧٦].

فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف، والباقي من الثلثين للأخت أو الأخوات لأب وهو السدس تكملة الثلثين، وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين سقط الأخوات للأب كما تقدم في البنات وبنات الابن، وإن كان الإخوة رجالًا ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين[(١)].

وللأخ ميراث من أخيه معروف عند علماء الفرائض، وذلك لقوة الصلة بين الإخوة ومراعاة الإسلام لحالها بعد وفاة أحدهما.

ثانيًا: حرمة النكاح:

حرم القرآن الكريم نكاحًا وأحل آخر -ولا يحل إلا طيبًا- لترتيب التعايش بين المؤمنين، وأهم ما حرم نكاحه بين الأخوة ما ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء:٢٣].

فكانت المحرمات -بالأخوة- على الأخ بلفظ الآية ما يأتي:

١. الأخوات: من أم أو أب أو منهما[(٢)].
٢. أخوات الأب والأم وهما العمة والخالة: فإن العمة والخالة بمنزلة الأم[(٣)].
٣. بنات الأخ وفروعها: شقيقًا كان أو غير شقيق.
٤. بنات الأخت وفروعها: شقيقة أو غير شقيقة.

ولفظ البنات: شامل لبنات البنات وبنات بناتهن وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين، وهو نص قرآني صحيح في استواء بنات بنيهن وبنات بناتهن[(٤)].

١. الأخت من الرضاعة و ما تفرع عنها: وهي التي أرضعتها أمك بلبان أبيك، سواء أرضعتها معك أو مع من قبلك أو بعدك من الإخوة والأخوات[(٥)]،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٠.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٦٦.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٦٣٨.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٠٥.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٧١٤.

قلت: وكذلك من رضعت من أمها وإن سفلت.

٢. الجمع بين أختين: في الوطء بنكاح أو ملك يمين من نسب أو رضاع، لما فيه من قطيعة الرحم إلا ما قد سلف في الجاهلية فإنه معفو عنه[(١)].

ومن أعظم وأروع دلالات الحب التي وردت في هذا الباب، حب لم يقتصر في رجال المسلمين فحسب، بل فهمته نساؤهم كذلك، حتى بذلت الأخت المسلمة لأختها في النسب أو غيره من الخير أمورًا فاقت علاقات الأمم جميعًا.

فقد ورد أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله؟ هل لك في أختي؟ قال: «فأفعل ماذا؟» قالت: فتنكحها، قال: «أختك؟» قالت: نعم، قال: «أو تحبين ذاك؟» قالت: لست بمخلية بك، وأحب من شركني في خير أختي، قال: «فإنها لا تحل لي» قالت: فوالله لقد أخبرت أنك تخطب درة - أو ذرة -(شك زهير)، بنت أبي سلمة، قال: «بنت أم سلمة؟» قالت: نعم، قال: «أما والله لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأباها ثويبة، فلا تعرضن علي بناتكن، ولا أخواتكن»[(٢)].

والمحرمون -بالأخوة- على الأخت بمفهوم الآية ما يلي:

١. الأخ وأبناؤه: شقيقًا أوغير شقيق وكذلك من الرضاعة.
٢. إخوة أبيها: من النسب أو الرضاع.
٣. إخوة أمها: من النسب أو الرضاع.
٤. كل أصل وفرع من طريق الأخ يحرم بالنسب أو الرضاع.

لقد حث القرآن الكريم على الأخوة ولم يتركها هملًا، بل شيد لها أعظم بنيان ثابت الأركان، فلن تجد فيه أمرًا أو نهيًا إلا لتكون هذه الأخوة دائمة الوصال محكمة الحبال، تجمع أحبابها لينعموا في ظل كبير يسمى «الأخوة الإسلامية».

ثالثًا: الإصلاح بين الإخوان:

وأول الإصلاح ما هيأه الله سبحانه من إصلاح حال عباده المؤمنين بفضله وبرحمته، فإنه قال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

يعني: فأصبحتم بتأليف الله عز وجل بينكم بالإسلام وكلمة الحق، والتعاون على نصرة أهل الإيمان، والتآزر على من خالفكم من أهل الكفر، إخوانًا متصادقين، لا ضغائن

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٧٣.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، رقم ٢٠٥٦، ٢/ ٣٧٧.

Made searchable using ScribeTools.com

بينكم ولا تحاسد[1].

وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحن، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام، فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣].

إلى آخر الآية، وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان، وقد امتن عليهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قسم غنائم حنين، فعتب من عتب منهم، بما فضل عليهم في القسم، بما أراه الله فخطبهم فقال: (يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي؟) فكلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن[2].

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام -من الركيزة الأولى- أساسها الاعتصام بحبل الله -أي: عهده ونهجه ودينه- وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، ولا على أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة! قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائمًا، وهو هنا يذكرهم هذه النعمة[3].

ومتى ما حصل لهذه الأخوة خلل أو خدش يخشى تفاقمه أوجب الله على جميع المؤمنين السعي بالصلح بين المؤمنين جماعات وفرادى.

فقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات:٩-١٠].

يقول تعالى ذكره: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٥٣. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم ٤٣٣٠، ٣/ ١٣٠٦.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٤٢.

﴿عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ يقول: فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله له، وعليه وتعدت ما جعل الله عدلًا بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي﴾ يقول: فقاتلوا التي تعتدي، وتأبى الإجابة إلى حكم الله ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يقول: حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ يقول: فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها بالعدل: يعني بالإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلًا بين خلقه(١).

ويقول تعالى ذكره لأهل الإيمان به ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ في الدين ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذا اقتتلا بأن تحملوهما على حكم الله وحكم رسوله، ومعنى الأخوين في هذا الموضع: كل مقتتلين من أهل الإيمان، وبالتثنية قرأ قراء الأمصار، وذكر عن ابن سيرين أنه قرأ بين إخوانكم بالنون على مذهب الجمع، وذلك من جهة العربية صحيح، غير أنه خلاف لما عليه قراء الأمصار ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وخافوا الله أيها الناس بأداء فرائضه عليكم في الإصلاح بين المقتتلين من أهل الإيمان بالعدل، وفي غير ذلك من فرائضه، واجتناب معاصيه، ليرحمكم ربكم، فيصفح لكم عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه، واتبعتم أمره ونهيه، واتقيتموه بطاعته(٢).

تنبيهات:

الأول: الاقتتال لا يكون إلا للميل إلى الدنيا، والركون إلى الهوى، والانجذاب إلى الجهة السفلية، والتوجه إلى المطالب الجزئية، والإصلاح إنما يكون من لزوم العدالة في النفس التي هي ظل المحبة، التي هي ظل الوحدة، فلذلك أمر المؤمنون الموحدون بالإصلاح بينهما، على تقدير بغيهما، والقتال مع الباغية على تقدير بغي إحداهما، حتى ترجع؛ لكون الباغية مضادة للحق، دافعة له.

الثاني: في الآية وجوب الصلح بين أهل العدل والبغي، وقتال البغاة وهو شامل لأهل مكة كغيرهم، وأن من رجع منهم وأدبر لا يقاتل، لقوله حتى تفيء.

الثالث: في الآية فوائد: منها أنهم لم يخرجوا بالبغي عن الإيمان، وأنه أوجب قتالهم، وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم، وإجازة كل من منع حقًا عليه، ووجوب معاونة من بغي عليه، لقوله: ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾ [الحجرات:٩].

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٨٦.

(٢) المصدر السابق، ١١/ ٣٨٩.

Made searchable using ScribeTools.com

وعلى وجوب تقديم النصح، لقوله: فأصلحوا بينهما، وعلى السعي في المصالحة، وذلك ظاهر.

الرابع: وجه الجمع في اقتتلوا، مع أنه قد يقال: مقتضى الظاهر (اقتتلتا) هو الحمل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس، والنكتة في اعتبار المعنى أولًا، واللفظ ثانيًا عكس المشهور في الاستعمال، ما قيل: إنهم أولًا في حال القتال مختلطون مجتمعون، فلذا جمع أولًا ضميرهم، وفي حال الإصلاح متميزون متفارقون، فلذا ثنى الضمير ثانيًا وسر قرن الإصلاح الثاني بالعدل، دون الأول؛ لأن الثاني لوقوعه بعد المقاتلة مظنة للتحامل عليهم بالإساءة، أو لإبهام أنهم لما أحوجوهم للقتال استحقوا الحيف عليهم[(١)].

وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين[(٢)].

والمراد بالناس المرغب في الإصلاح بينهم في قوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء:١١٤] هم المسلمون خاصة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠].

وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩].

فتخصيصه المؤمنين بالذكر يدل على أن غيرهم ليس كذلك كما هو ظاهر[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١] يدل على أن من رجا صلاح ما بين متعاديين من المؤمنين أن عليه الإصلاح بينهما[(٤)].

و﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، أي: لا أخوة إلا بين المؤمنين، وأما بين المؤمن والكافر فلا؛ لأن الإسلام هو الجامع ولهذا إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين ولا يكون لأخيه الكافر، وأما الكافر فكذلك؛ لأن في النسب المعتبر الأب الذي هو أب شرعًا، حتى أن ولدي الزنا من رجل واحد لا يرث أحدهما الآخر، فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لا يفيد الأخوة، ولهذا من مات من الكفر- أي: أهل الكفر- وله أخ مسلم ولا وارث له من النسب لا يجعل ماله (أي: لا يترك إرثه ليتقوى به الكفار فيأخذه أخوه المسلم لا للإرث ولكن لينفق في مصالح المسلمين غير المحترمة والله أعلم) للكفار، ولو كان

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٢٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٤٣.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٠٧.
(٤) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢٨٥.

الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار، كما أن مال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث، فإن قيل: قد ثبت أن الأخوة للإسلام أقوى من الأخوة النسبية، بدليل أن المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الأخ الكافر من النسب، فلم لم يقدموا الأخوة الإسلامية على الأخوة النسبية مطلقًا حتى يكون مال المسلم للمسلمين لا لأخوته من النسب؟ نقول: هذا سؤال فاسد؛ وذلك لأن الأخ المسلم إذا كان أخًا من النسب فقد اجتمع فيه أخوتان فصار أقوى والعصوبة لمن له القوة، ألا ترى أن الأخ من الأبوين يرث ولا يرث الأخ من الأب معه فكذلك الأخ المسلم من النسب له أخوتان فيقدم على سائر المسلمين، والله أعلم(١).

وقد قال ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى مكان كذا وكذا، أو فعل كذا وكذا، فله كذا وكذا» فتسارع إليه الشبان، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما فتح الله عليهم، جاؤوا يطلبون ما قد جعل لهم النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لهم الأشياخ: لا تذهبون به دوننا، فإنا كنا ردءًا -أي: معينين- لكم، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١](٢).

ولو اختصم الإخوة ولم يعلم بهم أحد ولم يصلوا إلى نتيجة، فينبغي عليهم البحث عن المصلحين وإشهار القضية فيهم ليتمكنوا من الإصلاح فيها، وهذا كما ذكره الله -عن المختصمين الذين جاءا داود عليه السلام ليصلح بينهم- بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص:٢٣].

فنص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضائها عدم البغي، وأن بغيه الصادر منه أعظم من غيره(٣).

والمراد أخوة الدين، أو أخوة الصداقة والألفة، أو أخوة الشركة والخلطة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص:٢٤].

كل واحدة من هذه الأخوات تدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم(٤).

والأصل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأمته منهج الأخوة الصحيح، بأسهل الأمور ابتداءً من طلاقة الوجه، إلى نهيه عن المعاملات التي تضر بالأخوة ليكونوا عباد الله إخوانًا، فجعل في هذا قاعدة أساسية ذكرها بقوله صلى الله عليه وسلم: (سباب المسلم فسوق، وقتاله

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٨٣.
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الصلح، ذكر السبب الذي من أجله أنزل الله (وأصلحوا ذات بينكم)، رقم ٥٠٩٣، ١١/ ٤٩١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٣٦.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢٣.

Made searchable using ScribeTools.com

كفر)[١].

وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم حقوق الأخوة بين المسلمين في حرمة دمائهم وأعراضهم وأموالهم يوم النحر فكانت قاعدة عظيمة يسير عليها أهل الإيمان في إخوتهم، ويحافظ عليها جميع المسلمين في تعاطفهم ومودتهم[٢].

خامسًا: الولاء والنصرة:

مما لا شك فيه أن الأخوة أصل الولاء، وقد بيَن الله الولاء الحقيقي ولمن يكون فقال عز وجل: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة:٢٢].

فلا تجد يا محمد قومًا يصدقون الله، ويقرون باليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله وشاقهما وخالف أمر الله ونهيه ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ يقول: ولو كان الذين حادوا الله ورسوله آباءهم ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[٣].

ووردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء، وهذا النهي الأكيد، والزجر العظيم عن موالاة أعداء الله، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد، من إيراده الإنشاء[٤].

فكأنك تقول: إن هذا بين الإخوة يكون أو لا يكون إن كان خبرًا، لكنه جاء بلفظٍ إنشائي يفيد النفي، وهو أن المؤمن الحق لا يواد أخاه في شيء مع محادته لله عز وجل.

فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان: إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان، والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان، فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد، ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يوم بدر، وهمَ الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم، متجردين من علائق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم ٤٨، ١/ ٤٠.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ٢١٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٥٧.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٥٦٦.

الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة، وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله[1].

فهذا أصل في الولاء والنصرة وأنها كائنة بين العشيرة ومنهم الإخوان، شريطة الإيمان بالله واليوم الآخر، ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥﴾ [الأحزاب:٥].

يقول الله تعالى ذكره: انسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم لآبائهم، يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألحق نسب زيد بأبيه حارثة، ولا تدعه زيد بن محمد.

وقوله: ﴿هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يقول: دعاؤكم إياهم لآبائهم هو أعدل عند الله، وأصدق وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم ونسبتكم لهم إلى من تبناهم وادعاهم وليسوا له بنين، فعن قتادة في قوله: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي أعدل عند الله.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾ يقول تعالى ذكره: فإن أنتم أيها الناس لم تعلموا آباء أدعيائكم من هم فتنسبوهم إليهم، ولم تعرفوهم، فتلحقوهم بهم، ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ يقول: فهم إخوانكم في الدين، إن كانوا من أهل ملتكم، ومواليكم إن كانوا محرريكم وليسوا ببنيكم[2].

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى، المتضمنة للقول الباطل فقال: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ﴾ أي: الأدعياء ﴿لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعدل، وأقوم، وأهدى.

﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ الحقيقيين ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾ أي: إخوتكم في دين الله، ومواليكم في ذلك، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والموالاة على ذلك، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم، لا يجوز فعلها.

وأما دعاؤهم لآبائهم، فإن علموا، دعوا إليهم، وإن لم يعلموا، اقتصر على ما يعلم منهم، وهو أخوة الدين والموالاة، فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم، عذر في دعوتهم إلى من تبناهم؛ لأن المحذور لا يزول بذلك[3].

فالنصرة والولاء للأخوة في الدين، أما ما عداهم فلا أخوة لهم ولا نصرة ولا ولاء، والباب متسع للجميع؛ لأن المؤمنين

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ١٥٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٣.

Made searchable using ScribeTools.com

والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.

ولو لم يعلم آباؤهم فهم إخوة في الدين؛ لأن هذه الأخوة كفى بها شرفًا، ويكفي المؤمنين هذه العزة التي من الله بها عليهم.

العلاقات الاجتماعية بين الإخوة

ذكر القرآن الكريم -من خلال الحديث عن الأخوة والعلاقات التي تكون بين الإخوة- أمورًا بين فيها بعض الأحكام التي تضبط العلاقات الاجتماعية وتجعلها تسير بيسر وسهولة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾ [النور:٣١].

أي: لأن هؤلاء محارمهن الذين تؤمن الفتنة من قبلهم[(١)].

وكل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج[(٢)].

فالإخوان ها هنا: أشقاء، أو لأب، أو

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٣٩٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٠٦.

لأم[1]،أو بالرضاع؛ لأنه لم يحدد الأخوة بالنسب، فيدخل الإخوة من الرضاع فيهم.

فيجوز للمرأة أن تكشف على أخيها وأبنائه وأبناء أخواتها ولو سفلوا؛ لأنهم في الحكم سواء وهم محارم المرأة في هذه الحالة، وهذا لرفع الحرج عنهم وعنهن ولاحتياج ذلك في الزيارات والمناسبات ولقاء بعضهم البعض.

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النور:٦١].

كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه، فتتحفه المرأة بشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم[2].

ولما علم بالعادة أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب[3]، أباح الله لهم الأكل في بيوتهم متى أرادوا.

وهؤلاء معروفون[4]، فهم أهل بيت واحد وإن تباعدت بهم الديار.

وكذلك في شأن الحجاب قال الله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [الأحزاب:٥٥].

فلما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم[5]؛ لأنهم ذوو أرحام أصيلة وأخوة صحيحة.

ولما نزلت آية الحجاب شق عليهن- نساء النبي صلى الله عليه وسلم- وعلى النسوان وعلى الرجال في الاستتار، فأنزل الله عز وجل هذه الآية للرخصة في نظر هؤلاء إلى النساء، ورؤية النساء لهم على تفصيل الشريعة[6].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٢٤.
(٣) تفسير المراغي ٦/ ١٣٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٠٠.
(٦) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ١٦٩.

Made searchable using ScribeTools.com

فوائد من قصص الإخوة في القرآن

أولًا: قصة يوسف وإخوته:

هو: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: من أكرم الناس؟ قال: (أكرمهم أتقاهم)، قالوا: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك، قال: **(فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله...)** الحديث(١).

وهو أحد أبناء يعقوب، وله شقيق واحد، والباقون إخوته من أبيه(٢).

مكانته عند والده:

كان يوسف وأخوه بنيامين من أم واحدة، وكان يعقوب شديد الحب ليوسف، وكان إخوة يوسف يرون منه من الميل إليه ما لا يرونه لأنفسهم(٣).

وجعلوا أخاه معه في مرتبة الحب عند أبيهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (أم كنتم شهداء...)، رقم ٣٣٧٤، ٢/ ١٠٤٢.

(٢) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ٣٥٠ وقال: «وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم، وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول».

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٥٨.

وهذا ما جعلهم يحسدون يوسف، وبيَن الله ما آل إليه أمرهم في الحسد وتشاورهم في التخلص منه، حتى اتفق الجميع على مشورة ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف:١٠].

رؤيا يوسف عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦﴾ [يوسف:٤-٦].

تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلًا سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه... فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحدًا من إخوته فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغوائل حسدًا منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥].

أي: يحتالوا لك حيلة يردونك فيها(٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٤٧.

وإنما قال يعقوب ذلك؛ لأنه قد كان تبين له من أخوته قبل ذلك حسدًا[1].

فكان ما قرروه من الخروج به، ورميه في البئر، والكذب على والدهم، فتولى الله أمره، فصار معبرًا للرؤى، ومكن الله له في الأرض حتى صار حفيظًا على خزائن مصر ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

وقد نبهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا نقع في مثل هذا، فعن أنس بن مالك، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال»[2]، فبيَن لنا أن الوصول إلى الإضرار بالإخوة لا يأتي إلا بالتدرج، فمن تنبه لخطوات الشيطان أول الأمر عاد إلى رشده وعرف حق أخيه، ومن اتبع خطوات الشيطان وترك الهدي القويم ضل عن الحق وتدرجت به الخطوات؛ حتى توصله إلى الإضرار بإخوانه ومخالفة أمر الله ورسوله.

وصول إخوة يوسف عليه السلام ودخولهم عليه:

يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون[3] طعامًا، وذلك بعد إتيان سني الجدب وعمومها على سائر العباد والبلاد.

وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية دينًا ودنيا.

فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة، فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف:٥٩].

أي: أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته؛ من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٥٩].

وكان قد سألهم عن حالهم، وكم هم؟ فقالوا: كنا اثني عشر رجلًا، فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا.

فقال: إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف:٥٩] أي: قد أحسنت نزلكم وقراكم، فرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم إن لم يأتوه به فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف:٦٠]

أي: فلست أعطيكم ميرة، ولا أقربكم بالكلية، عكس ما أسدى إليهم أولًا.

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٥٠.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم، رقم ٤٩١٠، ٥/ ١٣٥.
(٣) أي: يأتون بالطعام، والمائر: هو الذي يأتي بالطعام.
انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٣.

Made searchable using ScribeTools.com

فاجتهد في إحضاره معهم لبيل شوقه منه بالترغيب والترهيب.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف:٦١].

أي: سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن.

﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف:٦١].

أي: وإنا لقادرون على تحصيله.

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم وهي ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة، في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾ [يوسف:٦٣-٦٨][1].

فهذا من أهم ما فعله يوسف مع إخوته دون تجريح، أو شفاء غليل، أو معاملة بالمثل، بل أحسن استقبالهم وجهز متاعهم، ورتب للقاء أخيه الأصغر بكل هدوء وطمأنينة، فهو يعلم أن الله معه وسيوفقه، فعاملهم بما يرضي الله لينال من الله ما يرضيه.

دخولهم على يوسف مع شقيقه:

عندما طلبوا من أبيهم اصطحاب أخيهم للذهاب معهم إلى مصر من أجل الميرة؛ ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾ [يوسف:٦٤].

وبعد عهود ومواثيق قبل أبوهم ذلك، وأوصاهم بوصايا تعينهم في السفر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩)﴾ [يوسف:٦٩].

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس، أي: لا تأسف

(١) انظر: قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ٣٨٤.

على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززًا مكرمًا معظمًا[1].

احتواؤه لشقيقه والاجتهاد في إصلاح حال والده:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف:٧٠] وهي خطة منه عليه السلام ليحتوي أخاه بين يديه لأمر قادم.

عن ابن عباس: تعرف إليه أنه أخوه، وهو الظاهر، وهو قول ابن إسحاق وغيره، أعلمه أنه أخوه حقيقة واستكتمه، وقال له: لا تبالي بكل ما تراه من المكروه في تحيلي في أخذك منهم[2].

ويقال: لئن نسب يوسف أخاه للسرقة فقد تعرف إليه بقوله: إني أنا أخوك-سرًا-، فكان متحملًا لأعباء الملامة في ظاهره، محمولًا بوجدان الكرامة في سره[3].

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف:٧٦].

أي: ما صح له أن يأخذ أخاه في قضاء الملك، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق، لإيصال يوسف إلى أربه، رحمة منه وفضلًا، وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك، وإلا، لاستبد بما شاء، وهذا من وفور فطنته وكمال حكمته[4].

﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يوسف:٧٧].

وبهذه الطريقة المحكمة استطاع يوسف احتواء أخيه، وأمرهم كبيرهم أن يعودوا لأبيهم ويخبروه بما حصل وقال عن نفسه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠].

فازداد حزن يعقوب وذكره هذا الحدث بفقدان يوسف من قبل، وكل هذا بسوء التعامل بين الأخوة، و اتباع الشيطان، والكيد بمن آتاه الله من فضله.

فقال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٦٠.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣١٠.
(٣) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ١٩٦.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٢١٠.

Made searchable using ScribeTools.com

يوسف يحزن لحال إخوته فيسعفهم:

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة، وقد أضرت بهم المجاعة، ونفدت منهم النقود، وجاءوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم يشترون بها الزاد، يدخلون وفي حديثهم انكسار لم يعهد في أحاديثهم من قبل، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف:٨٨].

وعند ما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز، والتخفي عنهم بحقيقة شخصيته، فقد انتهت الدروس، وحان وقت المفاجأة الكبرى التي لا تخطر لهم على بال، فإذا هو يترفق في الإفضاء بالحقيقة إليهم، فيعود بهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم، ولم يطلع عليه أحد إلا الله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف:٨٩-٩٠].

مفاجأة! مفاجأة عجيبة، يعلنها لهم يوسف ويذكرهم في إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه في دفعة الجهالة، ولا يزيد سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه، معللًا هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله في الجزاء.

اعتراف الأخوة بالخطأ على أخيهم والتوبة من ذلك:

أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف، ويجللهم الخزي والخجل وهم يواجهونه محسنًا إليهم وقد أساؤوا، حليمًا بهم وقد جهلوا، كريمًا معهم وقد وقفوا منه موقفًا غير كريم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف:٩١].

اعتراف بالخطيئة، وإقرار بالذنب، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان، يقابله يوسف بالصفح والعفو وإنهاء الموقف المخجل، شيمة الرجل الكريم، وينجح يوسف في الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل في الابتلاء بالشدة.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٩٢].

لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم، فقد انتهى الأمر من نفسي ولم تعد له جذور، والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم

الراحمين[١].

فالعزيز الحق عزيز بحق، وليس من عادة الكرام سرعة الانتقام، بل العفو عند المقدرة.

فلما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق-بسبب ما وقعوا فيه من الظلم لأخيهم أولًا ومعصية والدهم لحقدهم عليه- وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرف إليهم[٢].

ومهما يكن من غي وسفه، فالاعتراف بالخطأ فضيلة، والرجوع إلى الرشد فلاح.

قبول الأخ لاعتذار إخوته وإكرامهم أينما كانوا:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف:٩١] أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريد ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩١].

وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف[٣].

فقال لهم: لا تعيير عليكم ولا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوة، ولكن لكم عندي الصفح والعفو[٤]، وهذه نعمة تحمد، وخلة تدوم، وصفة تلازم، فكانت هذه تيجان خلق مضافة إلى تيجان الملك.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

فلم يقل: «نزغ الشيطان إخوتي» بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد

(١) بتصرف: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٢٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٦٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٩١.

Made searchable using ScribeTools.com

وضمائرهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها[(١)].

إخوة يقتدى بهم في الإصلاح وحسن العفو:

فلله ما أعظم الحسد في إفساده وداد الإخوان، وما أقبح الولوج في طاعة الشيطان، فمن حرم غيره حقه حرمه الله كذلك، ومن استغنى عن أخيه فقد يحتاج إليه في أصعب اللحظات، ومن قدر على الظفر من إخوانه بعد ظلمهم له فليحسن القضاء، والعظيم يبقى في محله إن لم يزدد رفعة وسموًا، أعطاهم حين منعوه، ووصلهم حين قطعوه، وعفا عنهم بعد إذ ظلموه، وتلك جماع الأخلاق.

جمعها يوسف عليه السلام في أحسن قصص، وجعلها رايات للسائرين، ومنارات للعارفين، ومقامات تنفع العامل بها إلى يوم الدين.

وقد اعترف إخوة يوسف بتعمد خطئهم، فكان دليلًا على صدق التغيير للأفضل.

فقالوا لأخيهم يوسف عليه السلام: إنا كنا-بلا استثناء- أي: والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك، وآثمين في أمرك، والخاطئ: الذي يتعمد الخطيئة[(٢)]، وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف[(٣)].

وصار هذا منهجًا عمليًا في تطبيق الصحابة رضي الله عنهم، فهم خير سلف لخير خلف.

فعن المعرور بن سويد، قال: مررنا بأبي ذر بالربذة وعليه برد وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: **«يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية»**، قلت: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمه، قال: **«يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»**[(٤)].

قصة موسى وأخيه وهارون ودور أخته في طفولته.

موسى عليه السلام: وهو موسى بن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٠.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٣/ ٥٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، رقم ٣٠، ١/ ١٥.

عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام[1].

وفي بداية عمره وزمان ولادته، علا فرعون في الأرض وطغى على بني إسرائيل «يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين».

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه.

وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها[2].

ولما وضعته أمه؛ قال الله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].

دور أخته الكبرى في حياته:

عن ابن عباس ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١].

أي: قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرًا، أحي ابني أو قد أكلته دواب البحر وحيتانه؟ ونسيت الذي كان الله وعدها، وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:١١] يقول تعالى ذكره: فقصت أخت موسى أثره، فبصرت به عن جنب: يقول فبصرت بموسى عن بعد لم تدن منه ولم تقرب، لئلا يعلم أنها منه بسبيل[3]، قال الله:

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [القصص:١٢-١٣].

فكانت أعظم أخت سعت لرد الوليد لوالدته، وأحسنت لأخيها وهو طفل رضيع، فالأخوة باب واسع، للولوج إلى بيت جميل.

بركة موسى على أخيه هارون:

حين كبر موسى عليه السلام، وفر من بلده بعد قتل القبطي، ووصل مدين وتزوج منها، ثم عاد لأرضه أوحى الله إليه أن يدعو فرعون وقومه إلى توحيد الله.

فخاف مما مضى عليه السلام وقال لله: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾ [القصص:٣٤] أي: معينًا لي.

وهارون اسمٌ أعجميٌ غير منصرف،

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٤٥٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢/ ٤٥٦ .

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٧ .

Made searchable using ScribeTools.com

وقيل: معرب أرون، والأرن: النشاط، سمي به لنشاطه بالطاعة، ثم قيل: هارون.

وقد سماه الله تعالى في التنزيل بعشرة أسماء تصريحًا وتعريضًا:

١. **وزيرٌ**: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩﴾ [طه:٢٩].

٢. **أخٌ**: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف:١٥١].

٣. **رسولٌ**: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧].

٤. **مرسلٌ**: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

٥. **نبيٌّ**: ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ [مريم:٥٣].

٦. **ردءٌ**: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا﴾ [القصص:٣٤].

٧. **أفصح**: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ [القصص:٣٤].

٨. **مصدقٌ**: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص:٣٤].

٩. **خليفةٌ**: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ [الأعراف:١٤٢].

١٠. **هارون**: اسمه.

وقد ذكره الله تعالى بهذا الاسم في مواضع من التنزيل:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ [الأنبياء:٤٨]. ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف:١٢٢]، [الشعراء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ [الأعراف:١٤٢].

وقوله تعالى: ﴿هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ [القصص:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣].

وقوله تعالى: ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ [مريم:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا﴾ [الفرقان:٣٥].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: (يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى)(١).

فكان مدح موسى لأخيه هارون بشيء صحيح يعلمه منه واقعًا، ولم يزد ثناءً عليه.

فطلب أن يعينه الله بمعين من أهله، هارون أخيه، فهو يعلم عنه فصاحة اللسان وثبات الجنان وهدوء الأعصاب، وكان موسى عليه السلام قويًا؛ فطلب إلى ربه أن يعينه بأخيه يشد أزره ويقويه ويتروى معه في الأمر الجليل الذي هو مقدم عليه(٢).

واستجاب الله له فقال: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾ [مريم:٥٣] ليشد أزره في أداء الرسالة(٣)، أي: وأجبنا سؤاله

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٦/ ٧٦.
والحديث أخرجه البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب علي رضي الله عنه، رقم ٣٧٠٦، ٣/ ١١٤٢.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٣٣.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٠٨.

وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبيًا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص:٣٤].

وقال: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه:٣٦]

وقال: ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٣-١٤].

ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيًا[(١)].

وفي هذه الشفاعة بيان الحرص العظيم من الأخ لأخيه في حب الخير له.

وجعله الله منة من مننه عليه فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الفرقان:٣٥].

عن قتادة: عونًا وعضدًا[(٢)]، يوازره في الدعوة وإعلاء الكلمة ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة؛ لأن المتشاركين في الأمر متوازرون عليه[(٣)].

هارون عليه السلام وزيرًا لأخيه موسى عليه السلام:

صار خطاب القرآن الكريم يتوجه بالأمر للأخوين عليهما السلام، وذلك بعد إشراك الله لهارون في الرسالة ليكون عضدًا لأخيه، فقال الله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس:٨٧].

فالله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام[(٤)]، والمراد أنهم يجعلون بيوتهم مستقبلة للقبلة ليصلوا فيها سرًا لئلا يصيبهم من الكفار معرة بسبب الصلاة، ومما يؤيد هذا قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس:٨٧].

أي: التي أمركم الله بإقامتها فإنه يفيد أن القبلة هي: قبلة الصلاة إما في المساجد، أو في البيوت لا جعل البيوت متقابلة، وإنما جعل الخطاب في أول الكلام مع موسى وهارون، ثم جعله لهما ولقومهما في قوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس:٨٧].

ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك، فقال: وبشر المؤمنين؛ لأن اختيار المكان مفوض إلى الأنبياء، ثم جعله عامًا في استقبال القبلة، وإقامة الصلاة؛ لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جعل خاصًا بموسى؛ لأنه الأصل في الرسالة وهارون تابع له، فكان ذلك تعظيمًا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٦٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٠٤.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٢٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩١٣.

Made searchable using ScribeTools.com

للبشارة وللمبشر[1].

وهذا من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولًا: إذ كان موسى وهارون هما الرسولين المطاعين، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء، وإذا تبوءا البيوت لقومهما فهم تبع لهما، ثم جمع الضمير فقال: وأقيموا الصلاة؛ لأن إقامتها فرض على الجميع، ثم وحده في قوله: وبشر المؤمنين أن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه ردءًا ووزيرًا، وكما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولًا واحدًا كقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف:٤٦].

فهذا الرسول هو الذي قيل له: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧][2].

ولقد ذكر الله موسى بالقوة وكان يأخذه الغضب، إلا أن ذلك لا يمنع من معرفة حقوق الأخ لأخيه حتى يكون الأخ مع أخيه نفسًا واحدة كما تقدم.

خلافة هارون أخاه موسى حين ذهب للقاء ربه عز وجل:

قال الله: ﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾ [الأعراف:١٤٢].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٥٣.

(٢) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ٣٠٩.

أي: كن خليفتي فيهم، قال موسى هذا لما أراد المضي إلى المناجاة -فقال لهارون- وأصلح أمر بني إسرائيل بحسن سياستهم والرفق بهم وتفقد أحوالهم ولا تتبع سبيل المفسدين، أي: لا تسلك سبيل العاصين ولا تكن عونًا للظالمين[3].

وهذا مع اعتماد موسى على أخيه؛ لكن لا بد من التوجيه لأخيه وإرشاده للسياسة الحسنة، والتحذير من طرق سبيل المفسدين، لكنهم خالفوا موسى وهارون، والخلاف شر كما يقال، وقد يكون سببًا في نزاع الأخوة.

التفاهم عند وجود الخطأ والتثبت بين الأخوة:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)﴾ [الأعراف:١٥٠].

«أخذ برأس أخيه يجره إليه»، فإن ذلك كان من فعل نبي عليه السلام، لموجدته على أخيه هارون في تركه أتباعه، وإقامته مع بني إسرائيل في الموضع الذي تركهم فيه، كما قال جل ثناؤه مخبرًا عن قول موسى عليه السلام له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢)

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٤٤.

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه:٩٢-٩٣]؟

وحين أخبره هارون بعذره فقبل عذره، وذلك قوله لموسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٤].

وقال: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف:١٥٠][1].

ونسبه إلى الأم -في سورة طه- مع كونه أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور؛ استعطافًا له وترقيقًا لقلبه[2]، فذكر له هارون أمورًا تبين أنه اجتهد في إصلاحهم، فلما خالفوه لم يستطع عليهم، لكنه لم يرض بما فعلوه ولم يقرهم على مخالفاتهم لأنبيائهم.

فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾﴾ [طه:٩٠] فعند ذلك ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف:١٥١].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح؛ فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح)**[3].

فلا بد لمن ظن فيه الخطأ أن يبين لأخيه ما يجب أن يزول عنه، وأن يكون العذر صحيحًا، مع مراعاة حال أخيه خاصة في غيرته لله، والأخ الناصح ينظر في عذر أخيه ويتأمله ليقبله، ولقد قبل موسى عليه السلام عذر أخيه مباشرة لعلمه بصدقه في ذلك.

لذا قال هارون: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٤].

فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم فلو تبعتك لتركت ما أمرتني بلزومه وخشيت لائمتك و ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ حيث تركتهم وليس عندهم راع ولا خليفة؛ فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء فندم موسى على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف:١٥١][4].

فكان موسى عليه السلام فاتحة خير

---

(١) جامع البيان، الطبري ٦/ ٦٨.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٥٢.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة طه، رقم ٣٤٣٥، ٢/ ٤١٢.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
ولم يتعقبه الذهبي.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٦.

Made searchable using ScribeTools.com

لأخيه هارون، فصارا أخوين في النسب والدين والرسالة، وقد امتن الله عليهما بذلك، وجعلهما قدوة لمن بعدهما، وخلد ذكرهما في العالمين، فكانت هذه الأخوة الحميمة والخصال العظيمة أرقى شيء بقي لنا ﴿مِمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٨].

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، البنوة، الصحبة، العلاقات الاجتماعية، الوحدة